أحمد هندي

أُحْجِيَة الرّوح

كانت البداية حين التقوا في معادهم الأول، عندما خلقهم ربهم وبعثهم حتى يشهدهم على أنفسهم بأنه الإله الواحد الأحد، استجابوا وقالوا إنا على ذلك من الشاهدين، ثم رأوا من بعيد أفواجًا كثيرة من الناس تختلط بهم، حتى بدا كأن كل امرأة تعرف أين تذهب وكل رجل إلى من يهتدي من النساء، عندما رآها أمسك يديها دون أن يشعر بذلك، ونظر إلى عينيها ورأى فيهما مستقره ورأت في عينيه نهايتها، لمست بيديها وجهه وتحسسته كالعمياء تستبصره، كانت اللحظات الأولى تجري دون أن ينطق أي منهما كلمة، شعرا بأن لكل منهما سره وقد أودعه الله في الآخر، حتى إذا التقيا انكشف سرهما لأنفسهما، لم يدرك أي منهما شيئًا سوى أن يقتربا ويشعرا بأنفاس بعضهما البعض ويتحسسا نبضاتهما من على صدروهما، همسا في آذان بعضهما بكلمات لم يفهمها سواهما، وكانت أعينهما تبكي من الفراق بعد سماع المنادي الذي بدأ في ندائه الأخير: ليتعرف كل منكم على زوجه فهنا أول لقاء لكم ومن بعدها ستفترقون، حتى إذا أذن ربكم وجمع بينكم في الدنيا، وإن لم يأذن فالآخرة هي منتهى بحثكم ولقياكم...

قد تسجل ذلك المشهد في أسفل ذاكرة كل بني آدم وأغلق ذلك المكان بحيث لا يستطيعون أن يجدوه أبدًا في دنياهم، وقد ولد كلٌ منهم في تلك الحياة وهو لا يعلم أيًا من ذلك، حتى إذا بدأوا في تلقين أنفسهم دروس الحياة كانت رؤيتهم لتلك الحقيقة تبدأ بالتجلي ولكن لا تظهر أبدا بملامحها الحقيقية، مثل الطفل في بطن

أمه؛ فجدار بطنها لا يُظهر ملامحه ولكن حركاته المتواصلة تثبت وجوده حيًا.

وعلى مر السنين التي كان يقضيها في الدنيا بمفرده كان يقع في الأخطاء كل حين، لم يكن بذلك الكمال الذي يمنعه من ارتكابها، ولكن كان هناك جزء من تلك الأخطاء في محاولة اكتشاف نفسه، فيرى في المرآة زوج نفسه، فكلما اتضحت الصورة لذاته زادت بصيرته لرؤية مثيلها، لم يتعلم تلك الأمور من حكيم أو صديق بل تعلمها بنفسه فكانت أصعب، ولكنه كان سريع التعلم، سريع الفهم لذاته، لم يخرج من أي تجربة إلا وقد دون في مخيلته علامات تدله على الطريق الصحيح الذي يسلكه في المرة القادمة، لم يتعثر إيمانه قط بأنه سوف يصل إليها، كان كل خطأ يقع فيه يزيده قوة وإيمانًا بأن هناك من سيفهمه وسيحل لغزه المستعصي، لم يرَ لنفسه إلا أن يعيش مع من يستحق، فلم يخلق ويستخلف في الأرض ليتزوج من أي امرأة ويقضي معها عمره الذي سيحاسب عليه، ثم يسود بينهما الجفاء والتعوّد عليه، كان قد وصل لمرحلة من فهم نفسه جعلته لا يستقر إلا مع ما يلائمها.

في مرة قال محادثًا صديقه: عليك أن تكتشف ذاتك لمجرد الاكتشاف والفضول، لمجرد أنك مخلوق بها، فكيف لك أن تعيش بين أضلعك نفسٌ لسنين طويلة ولا تعلم ملامحها وأسرارها؟ ومن تلك الأسرار أن تكتشف زوجك وأن تعلم من تستحق.

وأكمل قائلاً: إن من يعيش في ظلام بينه وبين نفسه لا يتذوق معنى الحياة، وأول مزايا أن تكتشف نفسك هو أنك سوف تعقد للأبد عقدًا من السلام بينك وبينها، فكل طرف قد أفضى بما فيه وطرح شروطه وعرف واجباته، فلن تخطئ في حق نفسك إلا وتتدارك الخطأ وتتبعه بالحسنة لكي تغفر لك نفسك، وفي كل الأحوال أنى لك أن تقود سيارتك وأنت لا ترى الطريق؟!

وكلما ازددت عمقاً في بحثك داخلها انكشفت لك أسرار وجودك واستقر قلبك في السؤال عن تلك الأسئلة التي دائما ما ترهقه.

وفي صباح يوم استقيظ على رؤيا في المنام جعلته ينتبه أنه لا ينبغي أبدًا أن يترك إيمانه بوجودها، وتبدأ الرؤيا بركضه سريعًا في أرض زراعية خضراء، ورأى حينها السماء زرقاء بشدة وصافية وأشعة الشمس تضرب وجهه فتجعله في حالة انتعاش من دفئها وكأنها ليست تلك الشمس التي يعرفها ولا تلك الأحاسيس التي يشعر بها حين يرى الخضرة، ظن أن كل شيء في تلك الرؤيا هو قطعة من الجنة قد تكونت في مخيلته وترجمها عقله في نومه، وبعد ركضه السريع وجد أنفاسه ترجع إليه بسرعة، ورأى من بعيد فتاة تجلس تحت شجرة ضخمة، وقد كونت من تلك الشجرة حصنًا لها وحددته بالزهور التي قطفتها من الحديقة وصنعت صندوقًا خشبيًا لا يعلم ما فائدته، فبعده عنها جعله يظن أنها تخزن فيه بعض الفاكهة، ربما التفاح الأحمر الذي كان يسقط من تلك الشجرة التي استوطنتها....

حينها شعر أن هناك تكمن طاقة عظيمة، شعر بلهيب تلك الطاقة يمسه من بعيد وقد امتلأ قلبه بالرضا والسرور غير المشروط...

وظل في تلك الحالة الرائعة من الإيمان، لم يتعبه الانتظار فكان لا يعتبره انتظارًا، ولكن كان يبحث في أسرار الكون في نفسه ويستكشف الحياة، فلقياهم أصبحت مسألة وقت ليس أكثر، حتى أصبح ما يفصل بينه وبين لقياهم.. أن يراها!

فقد عرف مشاعره بدقة وعلم كل ما يدور في قلبه، ونفسه أخبرته بأنه إذا تدفق ذلك الكم والنوع من المشاعر فتلك الفتاة ليست بعادية، هو فعليًا لم يرها يومًا أو يلمحها في مكان مزدحم أو حتى عرف ملامحها من رؤيا في منامه، بل كل الذي كان يدله على وجودها هو إيمانٌ في قلبه، فكيف لإيمانٍ أن يخذل صاحبه؟!

وحين شاء القدر أن يجمع بينهم كانت صدمة!

رأى في ملامحها هدوءًا لم يشهده من قبل، وراحة لم يذق مثلها في حياته، وشعر أيضًا بشيء غريب.

شعر بأن هنالك شيئًا يخترقه ويصل إلى أعماقه.. كأنها قد وضعت يدها على صندوقه السري، ذلك المكان الذي لم يصل إليه أحد، وهو يعلم جيدًا لأنه بحث في نفسه فلم يستطع أن يصل إلى ذلك المكان العميق.

كل ذلك قد حدث من نظرة واحدة! لم يستغرب بل توقع كل ذلك، ولكن لم يكن يعلم أنها بتلك القوة التي تجعله يتأثر بكل ثانية تنظر إليه فيها، نظر إلى ثغرها وجبهتها.. دقق كثيرًا في ملامحها، لم يرَ كمالاً مثل ذلك قط! لم يشعر أن هناك شخصًا بالنسبة له قد حقق معايير الجمال والروعة مثلما فعلت.

انتظر تلك اللحظة منذ سنين، انتظر أن ينظر إلى فتاة تكمل أحجية الروح المفقودة، تصلح كل العيوب المكشوفة، تزين له الدنيا، تجعله في ضفة أخرى من الحياة، لم يعش مكسورًا أو ضعيفًا ولكن كان ناقصًا لتلك الروعة!

تلاقت أعينهما وكأنه أصيب بالشلل المؤقت، فقد رأى توأمه الذي لم يره منذ أن ولد إلى هذه الدنيا، لم يرَ أبدًا مثيلاً لذلك الالتحام والألفة، كان في قلبه صوت ضعيف يقول: " ويحي.. ! وكأني كدت أن أصدق أنك وهم! ها قد تحققتِ أمام عيني".

نظرت إليه ولم تكن تعلم كل تلك الأمور التي كان يشغل بها ذهنه، لم يعلم هو أيضا إذا كانت تكتب له القصائد أو الرسائل كما يفعل، لم يعلم سوى أن يقترب منها ببطء ويهمس أمامها:

"ما بحثت عنه وجدني".

ورحل عنها!

كان كل شيء يخبره بأن يبدأ الحديث، أن يعرف ما اسمها، لكنه انساق لرغبة قوية من قلبه أن يدير ظهره لها ويبتعد، كان يريد أن يشغل بالها لكي يمهد لنفسه الطريق، ولا يكون مجنونًا عندما يقول لها لقد عرفتك من نظرة عينيك، شعر وقتها أن نظرة عينيها أضاءت كل المصابيح التي توجد في قلبه، لم يرَ أي ظلمة بداخله،

بدا كل شيء واضحًا وضوح الشمس، وقد فتح في قلبها مئة سؤال وجعلها في حيرة لم تكن فيها من قبل، رحل وهو يعلم أنهما سيتجمعان قريبًا جدًا، ربما تسرع وتلحق به، أو ربما تسأل من حوله عن اسمه، أو ربما تأتي في نفس الموعد غدًا وتجده في انتظارها، تركها بكل الحيرة التي لا تجعلها تنام ولا تفكر إلا به، فنظرته هو أيضا لم تمر بسلام على قلبها، فقد خطف جزءًا منها وجعلها تضعه في أوضح نقطة في عقلها فلا تنساه أو تغفل عنه للحظة حتى تعلم من هو وما الذي وجده حين همس في وجهها..

لم يأبه متى سيلقاها ثانية؛ فإيمانه الذي أوصله إلى ذلك اللقاء الخاطف، وبالتأكيد سوف يلتقيان في مكان ما مرة أخرى ليبدآ لتكتمل رحلة بحثهما..

"إن أردت أن تبحث عن الله فابحث في نفسك، وإن أردت أن تصل لكمال البحث، فأكمل أحجية روحك.

هكذا التقيا وهكذا سوف يقضيان حياتهما إلى الأبد في حب وسلام، وتلكما القيمتان لا تأتيان إلا بعد إيمان وصبر، ولحسن الظن بالله نصيب كبير في تلك النعمة، فإن لقياهما بداية مغامرة جديدة، لكن لم تكن في نفسهما بل كانت في نفس الآخر، كانت تبحث عن كمالها في نفسه وكان يبحث عن كماله فيها!... "